ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 08، العدد: 02 (2023) ص: 78 - 87

علم المناسبة وعلاقته بالتماسك النصّيّ (قراءة في مدونات علم المناسبة)

THE SCIENCE OF RELATIONS AND ITS LINK TO THE TEXTUAL COHERENCE (READING IN THE BLOGS OF THE SCIENCE OF RELATIONS)

د. تواتي عبد العزيز
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد بوضياف بالمسيلة ، الجزائر
ص ب 166 اشبيليا، 28000، المسيلة
الجزائر

touatiabdelaziz04@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/01/29
تاريخ القبول:
2023/08/31

الكلمات المفتاحية:
- ✓ تماسك
- ✓ نص
- ✓ مدونة
- ✓ علم
- ✓ قرآن

الملخص:

علم المناسبات هو علم يهتمّ باستنباط مختلف وجوه الارتباط بين أجزاء القرآن الكريم، وعلى مستويات عديدة، ومن العلماء الذين برزوا في علم المناسبة وكانوا رواده بحقّ، المفسرُ فخر الدين الرازي صاحب التفسير "مفاتيح الغيب"، والإمام برهان الدين البقاعي صاحب تفسير "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، والإمام جلال الدين السيوطي الذي أفرد لعلم المناسبة رسائل خاصة، منها رسالة "تناسق الدرر في تناسب السور" ومنها "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"، وهناك الإمام أبو جعفر الغرناطي ـــ ولعله أشهرهم في هذا الباب ـــ وهو صاحب كتاب "البرهان في تناسب سور القرآن".

يأتي هذا البحث ليميط اللثام عن هذه المدوّنات وأشباهها، ويستخرج منها ما يثبت العلاقة بين علم المناسبات وعلم النصّ؛ لنكتشف بذلك مدى إسهام علماء المناسبة في مقاربة الكثير من الظواهر النّصّية، والتأكيد على ما يجعل من النص نصا متماسكا في غاية الانسجام، بالرغم من ذلك الاختلاف من حيث المصطلح بين ما أنجزه علماء التراث وبين ما أنتجه علماء النص في العصر الحديث.

Article info

Received
29/01/2023
Accepted
31/08/2023

Keywords:
- ✓ *Relation*
- ✓ *Cohesion*
- ✓ *Blog*

Abstract :

The science of relations is concerned with the development of the various aspects of the connection between the parts of the Quran and on many levels. Among the scholars who emerged in the science of relations were Fakhruddin Al-Razi, author of " mafatih alghyb", Jalal al-Din al-Suyuti, who devoted special messages to the occasion, including the message "tanasuq aldorar fi tanasub alswar," also "marasd almatalie fi tanasub almaqatie walmatalie", Burhanuddin Al-Beqa'i, The author of " nazm aldorar fi tanasob alayat walsuwr", and Abu Jaafar al-Garnati, author of "alburhan fi tanasob suar alqaran".

This research aims to uncover these blogs and the like, and to prove the link between the science of relations and the science of text. In terms of the term between the achievements of heritage scholars and

what was produced by the scholars of the text in modern.	✓ *Science* ✓ *Qaran*

1. مقدمة

لقد عكف علماء التراث البلاغي واللغوي على دراسة القرآن الكريم واستجلاء كنوزه وأسراره، حتى يلمسوا أكثر وأكثر ذلك الإعجاز الذي يتّسم به هذا الكتاب الخالد، ومن هؤلاء العلماء طائفة ركّزت على ما يُعرف بعلم المناسبات الذي يبحث في سرّ العلاقات بين أجزاء القرآن من سور وآيات، فهل يمكن لهذا العلم أن يتقاطع مع ما يُعرف حديثا بعلم اللسانيات النّصّيّة الذي يركّز على اتساق النصوص وانسجامها، وكل ما يمكن أن يجعل من النص نصا؟؟ وهل في مدوّنات علم المناسبة ما يشير إلى بعض المفاهيم النّصّية الحديثة؟؟

تجيء هذه الدراسة لتجيب عن هذين السؤالين، وتفترض وجود علاقة وطيدة بين علم المناسبات وعلم النص، وهي علاقة لم تنل حظها الكافي من الدراسة والبحث، وتفترض تضمن كتب التراثيين لكثير من المفاهيم النّصّيّة الحديثة، كما تنتهج الدراسة خطة تتمثل في محوريْن: أولهما يتضمن التعريف بعلم المناسبات ومشروعيته، وبيانٍ لمستويات التناسب في القرآن، وذكرٍ لحركة التأليف في علم المناسبات، والعلاقة بين هذا العلم وعلم النّصّ، والمحور الثاني يتناول أبرز المؤلفات في علم المناسبات، بوصفها واقتباس الشواهد منها، مما له وثيق الصلة بالموضوع.

وفي الأخير نخلص إلى نتائج البحث المجيبة عن إشكاليته.

2.علم المناسبات وأثره في النص:

1.2 التعريف بعلم المناسبات:

يعرّفه الإمام الزركشي(ت794هـ) بقوله: " واعلم أن المناسبة علم شريف، تُحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول...وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها؛ ومرجعها ـ والله أعلم ـ إلى معنى ما رابط بينهما: عام أو خاص، عقليّ أو حسّيّ أو خياليّ؛ وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني؛ كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين، والضدين، ونحوه. أو التلازم الخارجي؛ كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر" (الزركشي، د ت. ص: 35)، ويوجز هذا التعريف الإمام البقاعي(ت885هـ) في تفسيره فيقول: "علم مناسبات القرآن علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة " (البقاعي، د ت. ص: 06)، فأما موضوعه فهو " أجزاء الشيء المطلوب علم مناسبته من حيث الترتيب" (البقاعي، د ت. ص: 05) ، وليست الأجزاء إلا سور القرآن وآياته، وأما الغاية من هذا العلم فهي " الاطلاع على الرتبة التي يستحقها الجزء بسبب ما له بما وراءه وما أمامه من الارتباط والتعلق الذي هو كلحمة النسب " (البقاعي، د ت. ص: 05).

فعلم المناسبة من علوم القرآن، وهو يُعنى بالكشف عن الروابط بين أجزاء القرآن من سور وآيات، وبين مطالع الأجزاء وخواتيمها، ولاشك أن هذا العلم له متين الصلة بعلم التفسير، إلا أنه يسعى للتأكيد على أن القرآن وحدة كاملة مترابطة الأجزاء متلاحمة الفروع، مبيّنا العلة في ارتباط كل جزء بالذي يسبقه أو يليه، و" فائدته: جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء " (السيوطي، 2008. ص: 631).

2.2 مشروعية علم المناسبات:

لقد اختلفت آراء العلماء في هذا العلم بين مؤيد ومعارض، وفريق ثالث متحفّظ، وحجة من عارض قبوله أنه علم متكلّف، ولا فائدة منه، يتدخّل فيه الهوى والرأي مما نهى الله عنه، ولا سيّما إن خفي وجه المناسبة بين السورة وجارتها، أو بين الآية وجارتها، ومن هؤلاء العلامة الشوكاني (ت1250ه)، وقالوا إن القرآن نزلت آياته موافقة للأحداث والوقائع، ولأكثر من عشرين سنة، فلا يُطلب لها مناسبة لتفرّقها واختلاف أسباب نزولها (الشوكاني، 2007. ص: 50)، ولكن القرآن كما نزل منجّما فقد نزل دفعة واحدة ليلة القدر، وقد يُرد على ذلك بأن آيات القرآن هي " على حسب الوقائع تنزيلا، وعلى حسب الحكمة ترتيبا" (الزركشي، د ت. ص: 37). ، وأما من تحفّظ فقد اشترط شروطا، ولم ينكر المناسبة جملة وتفصيلا.

يقول الإمام العز بن عبد السلام (ت660ه): "المناسبة علم حسن؛ ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر...ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يُصان عنه حسن الحديث فضلا عن أحسنه" (الزركشي، د ت. ص: 37)، فهذا ضابط للقبول بفكرة المناسبة يتلخّص في وحدة الموضوع الذي يربط الآيات بعضها ببعض، فحينئذ يمكن القول بفكرة المناسبة والبحث عن وجه من أوجه ترابط الآية بما يسبقها أو بما يلحقها.

إن لعلم المناسبة فوائده التي لا تُنكر، من مساعدةٍ على فهم كتاب الله تعالى، وبيان المراد من الآية فيه، وإبرازٍ لوجه مهمّ من وجوه إعجازه، ودحضٍ لشبه المفترين على القرآن الكريم، وتوجيهٍ لقرائه إلى التدبّر والتفكّر (العزاوي، 2016. ص: 39، 40)، ومن فوائده التأكيد على أن القرآن وحدة متكاملة، مما يزيد في إظهار إعجازه، فإن "المتأمل في لطائف نظم سور الكتاب وفي بدائع ترتيبها ـ رغم تنجيمها على نيف وعشرين سنة ـ يتبين أن القرآن مصدره الحكيم الخبير، وأنه إلى جانب إعجازه من ناحية فصاحة لفظه وشرف معانيه معجز من جهة ترتيبه ونظم آياته وسوره" (الغرناطي، 1428ه. ص: 70)، وكذلك فإن هذا العلم يكشف عن الحكمة من توقيفية ترتيب سوره إن كان توقيفيا كما هو الراجح، كما أن من شأنه إثراء علم التفسير، كرافد من روافده، بما يكشفه من التناسب المعنوي بين سور القرآن وآياته.

غير أنه لا يمكن إنكار ما قد يقع فيه المنشغل بهذا العلم من التكلف والتمحّل، و لعل"معيار الطبع والتكلف يعود أساسا إلى مدى التماثل والتقارب، أو البعد والتنافر بين الموضوعات، فإن تماثلت وتقاربت، وارتبطت الأوائل بالأواخر فالتناسب معقول مقبول، وإن تنافرت وتباعدت فلا سبيل إلى القول بالتناسب، وإلا كان التكلف والتمحل والإغراب" (الغرناطي، 1428ه. ص: 69)، ومن هنا نفهم القول عن المناسبة بأنها " أمر معقول؛ إذا عرض على العقول تلقته بالقبول" (الزركشي، د ت. ص: 35).

على أنه من نافلة القول أن نذكر أن المناسبة تخفى في مكان وتظهر في آخر، وهي بين الآيات أظهر منها بين السور؛ ذلك لأن الموضوع الواحد يكون في الأغلب شاملا لآيات عديدة يربطها جميعا ذلك الموضوع، فيبقى إظهار وجه الانتقال من واحدة منها إلى أخرى، ولأن السورة الواحدة تكون أكثر ما تكون محيطة بموضوعها، مكتملة في ذاتها، وليس هناك من حاجة في أن تتحد مع ما يسبقها أو يلحقها من السور في الموضوع، وهذا ما يبيّن السبب في اشتغال أغلب المفسرين بالمناسبة بين آيات القرآن، وندرة وقوفهم على ما بين سوره (الغرناطي، 1428ه. ص: 69).

3.2 مستويات التناسب في القرآن الكريم:

إن الناظر المتفحّص في القرآن لا يرى فيه تفاوتا بين جزء وجزء، ولا اختلافا لهذا عن ذاك، من حيث التناسب في جميع أشكاله المتنوعة، من تآلفٍ في عباراته، وتخيّرٍ لألفاظه، ونظمٍ لها في نسق خاص يوافق معانيها المرادة، وتوافقٍ بين المعنى والمعنى، وتلاؤمٍ للإيقاع مع ما يراد منه، فضلا عن الانسجام في الإطار العامّ للسورة مع أغراضها، بل يجده الناظر كلّه على شاكلة واحدة، كأنه قطعة فريدة متكاملة في تناسقها وتشابهها، ولو كان من عند غير الله لوجد فيه اختلافا كثيرا.

والتناسب القرآني يقع على مستويات عدة يمكن تقسيمها كما يلي:

ــ التناسب المتعلق بالسور: هو شامل لما بين سورة وسورة أخرى سابقة لها أو لاحقة، وما بين بداية سورة ونهايتها، وما بين اسمها وموضوعها أو مقصدها.

ــ التناسب المتعلق بالآيات: هو شامل لمختلف وجوه التناسب بين آية وآية أخرى سابقة لها أو لاحقة.

ــ التناسب المتعلق بالآية الواحدة: هو شامل لما بداخلها من تناسب لفظي ومعنوي.

2. 4 حركة التأليف في علم المناسبات:

بالرغم من جلالة هذا العلم وشرفه فإنه لم ينل حظه من الدراسة والبحث، وقلةٌ من العلماء هم الذين اضطلعوا به، حيث إن أول من أظهره وتكلم فيه هو الشيخ أبو بكر النيسابوري (ت318هـ)، إذ كان يعيب على علماء بغداد عدم علمهم بالمناسبة، وأيضا من المتكلمين فيه فخر الدين الرازي (ت604ه)، حيث يرى أن الإعجاز ليس مقصورا على فصاحة لفظه وشرف معانيه، ولكنه كذلك في ترتيب سوره وآياته، ويصرّح بأنّ " أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" (الرازي، 1981. ص: 145)، غير أن النيسابوري لم يؤلف فيه، بل نُقل عنه اهتمامه به، وأما الرازي فقد أكثر منه في تفسيره "مفاتيح الغيب"، فيقول مثلا في تفسيره لآخر سورة المائدة: " فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح، وهذا المختتم ! " (الرازي، 1981. ص: 147).

وأما من ألف في هذا العلم الشريف فأشهرهم العلامة أبو جعفر بن الزبير الغرناطي (ت708هـ)، حيث ألف كتابه الذي وسمه بـ "البرهان في تناسب سور القرآن"، ثم ألف الإمام برهان الدين البقاعي(ت885ه) كتابه الموسوم بـ "نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، وصنّف السيوطي(ت911ه) كتابه: "تناسق الدرر في تناسب السور"، والظاهر أن الإقلال من الاعتناء بهذا العلم يعود تفسيره إلى وجود خلاف في كون ترتيب سور القرآن توقيفيا من الله تعالى أو هو اجتهاد من الصحابة، ومع رجحان الرأي الأول فإنه يظهر بعض وجوه المناسبة جليا ويخفى بعضها الآخر، وقد يقتضي الخافي منها تكلفا وتعسفا أحيانا، فإن أصاب المتكلّف وجه المناسبة فبعد طول نظر وتفحّص، وعناية ودقة (الغرناطي، 1428ه. ص: 66).

2. 5 بين علم المناسبات وعلم النص:

لقد عكف علماء التراث البلاغي واللغوي على دراسة القرآن الكريم واستجلاء كنوزه وأسراره، حتى يلمسوا أكثر وأكثر ذلك الإعجاز الذي يتّسم به هذا الكتاب الخالد، ومن هؤلاء العلماء طائفة ركّزت على ما يُعرف بعلم المناسبات الذي يبحث في سرّ العلاقات بين أجزاء القرآن من سور وآيات، ومن دون شك فهذا العلم لا بدّ أن يتقاطع مع ما يُعرف حديثا بعلم اللسانيات النّصّيّة الذي يركّز على اتساق النصوص

وانسجامها، وكل ما يمكن أن يجعل من النص نصا، فيتجلى ذلك التقاطع عندما نعتبر القرآن كله نصا واحدا، كاملا متكاملا، مجزّأً إلى فقرات، كل فقرة منه تمثّل سورة من سوره.

وكل سورة يمكن اعتبارها لوحدها نصا بذاته، بحيث يتجزّأ إلى فقرات هي آيات تلك السورة، وحتى الآية الواحدة فيمكن اعتبارها نصا قصيرا مجزّأً إلى جمل مترابطة فيما بينها.

ولعلّ السّر في صحة هذه الاعتبارات مردّه إلى ذلك الترتيب الذي جاءت عليه أجزاء القرآن الكريم، من سور وآيات، يقول الإمام الزركشي نقلا عن الإمام أبي بكر الأنباري: "فاتّساق السور كاتّساق الآيات والحروف، كله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، فمن قدّم سورة أو أخّرها فقد أفسد نظم الآيات " (الزركشي، د ت. ص: 260)، والملاحَظ على هذا النصّ المقتبس أن صاحبه قال: "أفسد نظم الآيات" ولم يقل: نظم القرآن، إذ أن المعتبر عند صاحب النّص هو أن فاتحة السورة من القرآن لها ارتباطٌ بخاتمة ما قبلها؛ لما تحمله الخاتمة من تنبيهات تحيل إلى أغراض ومقاصد في مفتتح السورة الموالية، في نظام متكامل، فإذا اختل ذلك الترتيب اختل هذا النظام وعريَ عن الفائدة (منال المسعودي، 2010. ص: 302).

إن التماسك النّصّيّ يظهر بوضوح أكثر إذا تعلق الأمر بمستوى الآيات القرآنية، وقد تفطّن لهذا التماسك علماء التفسير ممن اهتموا بعلم المناسبة وركّزوا عليه وبحثوا في وجوه ارتباط الآيات بعضها ببعض، يقول العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله: "الأصل في آي القرآن أن يكون بين الآية ولاحقتها تناسب في الغرض أو في الانتقال منه أو نحو ذلك من أساليب الكلام المنتظم المتصل" (ابن عاشور، 1984. ص: 79)، وللتدليل على وعي علماء التراث بهذا الموضوع يكفي أن نشير إلى فصل للإمام الزركشي، في كتابه "البرهان في علوم القرآن"، جعله تحت عنوان: "أنواع ارتباط الآي بعضها ببعض"، حيث يقول فيه: "ذكر الآية بعد الأخرى؛ إما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح، وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير، أو الاعتراض والتشديد؛ وهذا القسم لا كلام فيه. وإما ألا يظهر الارتباط؛ بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به" (الزركشي، د ت. ص: 40)، وحتى إن لم يظهر الارتباط فقد سعى العلماء في البحث عن روابط تخفى في ثنايا الكلام، وإعمال الفكر في إبرازها بهدف تبرير الترتيب الذي جاء توقيفيا من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم.

3.أبرز المؤلفات في علم المناسبات:

من الإنصاف أن نقول إن أغلب كتب التفاسير قد أسهمت في علم المناسبات بمستوياته العديدة، وعلى اختلاف في درجة إسهامها، وأما ما أفرد لهذا العلم من المصنفات فقد برز الإمامان أبو جعفر الغرناطي والسيوطي رحمهما الله، وتميّزا في هذا الباب.

ومن المصنفات التي اهتمت بمسائل تماسك أجزاء القرآن وترابط سوره وآياته:

1.3 نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:

كتاب في التفسير يبحث في علم المناسبات في القرآن: التناسب المعنوي بين السور القرآنية من جهة، وبين الآيات داخل السورة الواحدة من جهة أخرى، مع اهتمامه بمسائل علم المعاني وعنايته بإدراك الوجوه البلاغية، وقد استفاد منه من جاؤوا بعده، وعوَّلوا عليه في باب المناسبات، ومما يؤخذ على

الكتاب إغراق صاحبه أحيانا في المعاني مما يحيد بها إلى الغموض والإبهام، وتكلفه في استخراج المناسبة في بعض المواضع.

ومن أمثلة التماسك بين السور كما هو مثبت في الكتاب ذلك الاتصال بين آخر سورة الحجر وأول سورة النحل، وطبيعة هذا الاتصال هي كما يقول البقاعي: "صدر الآية تعليل لآخر سورة الحجر" (البقاعي، د ت. ص: 103)، أي أن أول سورة النحل تعليل لآخر سورة الحجر قبلها، والتعليل هو مفهوم دلالي يندرج ضمن أدوات الاتساق النّصّي، وقد أصبحت به السورتان كأنهما سورة واحدة أي نص واحد.

ومن ذلك أيضا التعليل بين سورتي ص والزمر، إذ يقول البقاعي مبيّنا وجه المناسبة بين السورتين: "لما تبين من التهديد في ص أنه سبحانه قادر على ما يريد، ثم ختمها بأن القرآن ذكر للعالمين، وأن كل ما فيه لا بد أن يرى لأنه واقع لا محالة لكن من غير عجلة، فكانوا ربما قال متعنتهم: ماله إذا كان قادرا لا يعجل ما يريده بعد حين، علل ذلك بأنه (تنزيل) أي بحسب التدريج لموافقة المصالح في أوقاتها وتقريبه للأفهام على ما له من العلو حتى صار ذكرا للعالمين" (البقاعي، د ت. ص: 437)، فكان لهذا التعليل أثر في ربط السورتين.

ومما ورد في تفسير البقاعي عن تماسك السورة الواحدة كلامه عن سورة الأحقاف، يقول تعالى في أول السورة: ﴿ حم (1)تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[الأحقاف 01 02]، ويقول في آخرها: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (35)﴾[الأحقاف 35]، يوضّح الإمام البقاعي مناسبة الأحقاف لأولها قائلا: " وأما الذين فسقوا والذين يفسقون فإن هادي هذه السورة يردهم ويوصلهم إلى المقصود، فهذا الآخر نتيجة قوله أولها "والذين كفروا عما أنذروا معرضون"...وذكر البلاغ هو تنزيل الكتاب من الله" (البقاعي، د ت. ص: 192، 193)، وهذا اتصال وثيق بذكر المرادف، فالتنزيل المذكور في بداية السورة هو البلاغ المذكور في ختامها، ثم يردف البقاعي بقوله: "فقد التحم هذا الآخر بذاك الأول أي التحام، واتصل بمعناه اتصال الجوهر النفيس في متين النظام، والتأم بأول التي تليها أحسن التئام فسبحان من جعله أشرف الكلام، لكونه صفة العلام منزلا على خاتم الرسل الكرام" (البقاعي، د ت. ص: 193).

ويُلاحَظ على تفسير نظم الدرر استعمال البقاعي لأداة الشرط (لما) كثيرا، عندما يريد أن يصل بين شيئين أو معنيين، فيكون الشرط متضمَّنا في الأول، وجوابه متضمَّنا في الثاني، وهذا شائع في كتابه؛ لأنه ربطه بعلم المناسبات، فعُرف به واشتهر، ومن أمثلة ذلك قوله: "فلما بيّن سبحانه بذلك إهلاكه عدوه صلى الله عليه وسلم، وختم بأعدى أعدائه فحكم بهلاكه وهلاك زوجه... جاءت سورة الإخلاص كاشفة لما ثبت من العظمة لوليّ النبي صلى الله عليه وسلم سبحانه وتعالى " (البقاعي، د ت. ص: 346، 347)، وذلك في المناسبة بين سورتيْ المسد والإخلاص، وقوله: "ولما ختمت الطور بأمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والتحميد، وكان أمره تكوينا لا تكليفا... افتتحت هذه بالحث على الاهتداء بهديه والاستدلال بدله واتباع أثره" (البقاعي، د ت. ص: 40، 41)، في المناسبة بين سورتيْ الطور والنجم، وقوله: "ولما كان الجواب قطعا: لم يتخذوا آلهة بهذا الوصف، ولا شيء غيره سبحانه يستحق وصف الإلهية، أقام البرهان القطعي على صحة نفي إله غيره ببرهان التمانع، وهو أشد برهان لأهل الكلام

فقال: (لو كان فيهما) أي في السماوات والأرض، أي في تدبيرهما" (البقاعي، د ت. ص: 403)، في المناسبة بين الآيتين المتعاقبتين: 21 و22 من سورة الأنبياء.

2.3 مفاتيح الغيب:

هذا التفسير للإمام الكبير فخر الدين الرازي، وهو أقل من نظم الدرر اهتماما بعلم المناسبات، غير أنّ فيه ما يدل بوضوح على كثير من العلاقات بين السور من جهة، وبين الآيات من جهة أخرى.

ومن الأمثلة على ذلك الاتصالُ الشديد الذي ذكره الرازي بين سورة الكوثر وسورة الماعون، حيث يقول عن سورة الكوثر: "هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، وذلك لأن في السورة المتقدمة وصف الله تعالى المنافق بأمور أربعة: (أولها) البخل وهو المراد من قوله (يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) (الثاني) ترك الصلاة وهو المراد من قوله (الذين هم عن صلاتهم ساهون) (والثالث) المراءاة في الصلاة هو المراد من قوله (الذين هم يراؤون) (والرابع) المنع من الزكاة وهو المراد من قوله (ويمنعون الماعون) فذكر في هذه السورة في مقابل تلك الصفات الأربع صفات أربعة، فذكر في مقابلة البخل قوله (إنا أعطيناك الكوثر) أي إنا أعطيناك الكثير، فأعط أنت الكثير ولا تبخل، وذكر في مقابلة (الذين هم عن صلاتهم ساهون) قوله (فصل) أي دم على الصلاة، وذكر في مقابلة (الذين هم يراؤون) قوله (لربك) أي ائت بالصلاة لرضا ربك، لا لمراءاة الناس، وذكر في مقابلة (ويمنعون الماعون) قوله (وانحر) وأراد به التصدق بلحم الأضاحي، فاعتبر هذه المناسبة العجيبة" (الرازي، 1981. ص: 117)، فالتقابل بين هذه المعاني هو السّرّ في المناسبة.

وعن ارتباط بداية السورة القرآنية بخاتمتها يقول الرازي في تفسيره لسورة المائدة: "مفتتح السورة كان بذكر العهد المنعقد بين الربوبية والعبودية فقال (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) وكمال حال المؤمن في أن يشرع في العبودية وينتهي إلى الفناء المحض عن نفسه بالكلية. فالأول هو الشريعة وهو البداية والآخر هو الحقيقة وهو النهاية. فمفتتح السورة من الشريعة ومختتمها بذكر كبرياء الله وجلاله وعزته وقدرته وعلوه، وذلك هو الوصول إلى مقام الحقيقة فما أحسن المناسبة بين ذلك المفتتح، وهذا المخـــتتم! " (الرازي، 1981. ص: 147)، فالعلاقة بين المفتتح والمختتم هي العلاقة بين بداية هي (الشريعة) ونهاية هي (الحقيقة).

وفي سورتيْ ص وق تناسبٌ لطيف بين أول كل منهما وآخره، يذكره الرازي مبيّنا أن السورتيْن تبتدئان بذكر القرآن وتختتمان به (الرازي، 1981. ص: 145) ، ففي أول ص: ﴿ ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1)﴾[ص 01]، وفي آخرها:﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (87) ﴾[ص 87]، وفي أول سورة ق:﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)﴾[ق 01]، وفي آخرها:﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (45)﴾[ق 45]، مع ملاحظة أن التكرار هنا ورد بذكر اللفظ نفسه في سورة ق، وبذكر مرادفه في سورة ص، والتكرار هو من أدوات تماسك النص كما تؤكده الدراسات النّصيّة الحديثة.

وأما عن تماسك الآيات المتعاقبة فعلى سبيل المثال يقول تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (26) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾[الجاثية 26 27]، فيعلل الرازي هذا التعاقب بين الآيتين بقوله: "واعلم أنه تعالى لما احتج بكونه قادرا على الإحياء في المرة الأولى، وعلى كونه قادرا على الإحياء في المرة الثانية في الآيات المتقدمة، عمّم الدليل فقال

(ولله ملك السموات والأرض) " (الرازي، 1981. ص: 272)، فمن خلال هذا التعميم وغيره من العلاقات مما يكون بين هاتين الآيتين يشتدّ تماسكهما، وتقوى الرابطة بينهما.

3.3 تناسق الدرر في تناسب السور:

هذه رسالة ماتعة للإمام جلال الدين السيوطي تقع في حدود 80 صفحة، خصّصها لإثبات المناسبات بين السور القرآنية كما يراها هو واجتهد في إبرازها، حيث استهل الرسالة بسورة الفاتحة فذكر اشتمالها على مقاصد القرآن كله، ثم أتى على سورة البقرة وتدرّج مع باقي السور إلى سورة الناس، على الترتيب المعروف في المصحف الشريف.

وكان في كل مرة يذكر وجوه المناسبات بين السورة التي يتناولها مع السورة التي قبلها، فيأتي على ما قيل قبله من تلك المناسبات، ثم يوضّح ما وصل إليه هو ولم يسبقه إليه غيره، ومثال ذلك قوله عن وجوه ارتباط سورة الأنعام بسورة المائدة قبلها: " قال بعضهم: مناسبة هذه السورة لآخر المائدة: أنها افتتحت بالحمد، وتلك ختمت بفصل القضاء، وهما متلازمتان... وقد ظهر لي بفضل الله... أنه لما ذكر في آخر المائدة (لله ملك السماوات والأرض وما فيهن) على سبيل الإجمال، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله" (السيوطي، 1986. ص: 83)، فها هنا علاقة الإجمال والتفصيل التي تربط بين السورتيْن المتعاقبتين.

ومن الأمثلة أيضا سورة النحل، فقد جاء في رسالة تناسق الدرر ما نصّه: "وجه وضعها بعد سورة الحجر: أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه، فإن في آخر تلك ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (99) ﴾. الذي هو مفسَّر بالموت، ظاهر المناسبة لقوله هنا: ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾. وانظر كيف جاء في المقدمة بيأتيك اليقين، وفي المتأخرة بلفظ الماضي، لأن المستقبل سابق على الماضي" (السيوطي، 1986. ص: 97)، والمقصود بسبق المستقبل للماضي ليس في الزمان، ولكن في الخبر.

وينظر السيوطي إلى المناسبة بين ص والزمر من خلال ظاهرة الترادف، يستنبطها من كلمة "ذكر" من آخر ص وكلمة "تنزيل" من أول الزمر، يقول: " فكأنه قيل: هذا الذكر تنزيل. وهذا تلاؤم شديد، بحيث إنه لو أسقطت البسملة لالتأمت الآيتان كالآية الواحدة" (السيوطي، 1986. ص: 114)، ويضيف أيضا مناسبة أخرى تتمثل في ذكر قصة آدم في آخر ص متبوعة بذكر قصة خلق زوجه في أول الزمر.

ومن الأمثلة أيضا ما ذكره السيوطي من المناسبة بين سورتي الفيل وقريش، قائلا عن سورة قريش: "هي شديدة الاتصال بما قبلها، لتعلق الجار والمجرور في أولها بالفعل في آخر تلك" (السيوطي، 1986. ص: 144)، وكأن ما فعله الله تعالى بأبرهة وأصحابه كان لإيلاف قريش، ولتأمين طريق تجارتهم، فالسورتان معا عن قريش وفضلهم على سائر العرب، إذ حماهم الله من أصحاب الفيل وأطعمهم وآمنهم.

4.3 مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع:

هذا بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها، في حدود خمسين صفحة، ألفه الإمام السيوطي رحمه الله، وهو يختلف عن الرسالة السابقة في تناول هذا البحث لمستوى السورة الواحدة، بحيث يثبت تعالق بدايتها بختامها، إمعانا في ترسيخ فكرة الوحدة الموضوعية للسورة، وشدة ارتباط مطلعها وخاتمتها، كأنها نصّ واحد محكم النسيج.

ومن أمثلة ما ورد في هذا البحث تلك المناسبة بين أول سورة الأنفال وآخرها (السيوطي، 1426ه. ص: 51)، فإنه سبحانه قال في أولها بعد أن ذكر صفات المؤمنين: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ

عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (4)﴾[الأنفال 04]، وقال في ختامها: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74)﴾ [الأنفال 74]، وهي خاصة في المهاجرين والأنصار وصفهم الله تعالى بالمؤمنين حقا، ووعدهم بالمغفرة والرزق الكريم كما وصف المؤمنين في أول السورة ووعدهم، والتشابه الذي في الآيتين من حيث اللفظ يؤكد الرابطة القوية بين فاتحة السورة وخاتمتها، وهي رابطة لفظية ومعنوية بليغة؛ فـ"مناط البلاغة هو التلاؤم بين الأول والآخر واشتباههما في الحسن والمزية لفظا ومعنى ونسجا" (منال المسعودي، 2010. ص: 158).

ومن ذلك أيضا ارتباط أول سورة الأحقاف بآخرها، حيث يقول السيوطي: "بدئت بذكر خلق السماوات والأرض، وختمت به" (السيوطي، 1426ه. ص: 65) .

5.3 البرهان في تناسب سور القرآن:

هذا كتاب صنّفه الإمام الحافظ أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي، وهو من نوادر ما ألف في الكشف عن أسرار النظم والمناسبة بين سور القرآن الكريم، ومن أقدمها وأبسطها.

وأما عن تماسك السور فقد عبّر عنه الغرناطي بالالتحام والاتصال، يقول مثلا عن سورة النحل التي أعقبت الحجر: "هذه السورة في التحامها بسورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق" (الغرناطي، 1428ه. ص: 123)، ثم يأخذ في تبرير هذا الالتحام بذكر مواضع الاتصال بين السورتيْن، كما يُلاحَظ على الكتاب استعمال أداة الشرط (لما) في بداية الحديث عن سورة ما تعبيرا عن ارتباطها بما قبلها، على نحو ما تقدّم من الكلام عن نظم الدرر.

ويقول الغرناطي عن سورة الحشر: "لا خفاء باتصال آيها بما تأخر من آي سورة المجادلة"(الغرناطي، 1428ه. ص: 184)، ويكشف وجه الاتصال بينهما بأن الحديث في آخر المجادلة كان عن اليهود: (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم)، (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله)، ثم يقول: " فلما أشارت هذه الآي إلى ما ذكر أُتبعت بالإعلام في أول سورة الحشر بما عجل لهم من إجلائهم وإخراجهم عن ديارهم وأموالهم، وتمكين المسلمين منهم جزاء على ما كانوا عليه من سوء مرتكبهم. والتحمت الآي باتحاد المعنى وتناسبه وانتسج الكلام" (الغرناطي، 1428ه. ص: 184)، وهذه الفقرة في غاية الأهمّيّة، ففيها إشارة إلى تماسك النّصّ بقوله (التحمت الآي)، وبيان لوسيلة هذا التماسك وآليته وهي الاتحاد في المعنى والتناسب فيه، ووصف لذلك التماسك بالنسيج حيث قال (انتسج الكلام).

ومن الأمثلة أيضا ما ورد بشأن سورة التحريم، يقول الغرناطي: "لا خفاء بشدة اتصال هذه السورة بسورة الطلاق لاتحاد مرماهما وتقارب معناهما...فهذه السورة وسورة الطلاق أقرب شيء، وأشبه بسورة الأنفال وبراءة لتقارب المعنى والتحامهما" (الغرناطي، 1428ه. ص: 184).

4. خاتمة:

بعد هذه الدراسة المتواضعة لبعض المؤلفات في علم المناسبة وعلاقتها بالدراسات النّصّيّة، نخلص إلى جملة من النتائج كما يلي:

ـــ علم المناسبات الذي عُرف قديما يأتي في مقدمة العلوم المرتبطة بعلم النّصّ، بل هو يقوم على أساس إثبات التماسك النّصّي في القرآن الكريم باعتباره نصا كاملا متكاملا، وليس مقسّما إلى أجزاء مستقلة عن بعضها، وبالتالي فهو يثبت توقيفية الترتيب كما هو في المصحف الشريف.

ـــ علماء المناسبة أسهموا إسهاما معتبرا في السبق إلى قضية تماسك النصوص، جاعلين من القرآن مادّتهم في ذلك، وبالإضافة إلى ما يثرون به درس التفسير فهم يرسون دعائم وجه مهمّ من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي نزل على مدار عقدين ونيّف من الزمان تبعا للأحداث والوقائع، ومع ذلك بقي على أحسن ترتيب مخالفا ترتيبَ تلك الأحداث.

ـــ علم المناسبة لم يُشر إلى قضية التماسك في نصوص ينتجها البشر، ولكن أصحابه أوْلوْا اهتمامهم وتركيزهم على القرآن فقط، باستخراج مختلف المناسبات والعلاقات بين السور من جهة، والآيات من جهة أخرى، مما يقويّ الروابط بينها، ويزيد في تماسكها وانسجامها.

ـــ استخدم علماء علم المناسبة مصطلحات قريبة في المفهوم من المصطلحات المتداولة اليوم ويُعبّر بها عن مفاهيم حديثة في علم النّصّ، مثل الالتحام والاتصال والاتحاد والمناسبة...الخ

ـــ على الباحثين اليوم إعادة بعث هذا العلم من جديد، والاهتمام به لكونه علما تأصيليا لكثير من المفاهيم والإجراءات النّصّيّة الحديثة، ومن ثمّ الوقوف أكثر على الجهود المعتبرة للعلماء القدامى في هذا الباب.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم، برواية حفص

- البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر. (دت). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي .
- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر. (1401هـ/1981م). مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). بيروت: دار الفكر .
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله. (دت). البرهان في علوم القرآن. القاهرة: دار التراث .
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين. (1429هـ/2008م). الإتقان في علوم القرآن. دمشق: مؤسسة الرسالة .
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين. (1406هـ/1986م). تناسق الدرر في تناسب السور. بيروت: دار الكتب العلمية .
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين. (1426هـ). مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع. الرياض: مكتبة دار المنهاج.
- الشوكاني، محمد بن علي. (1428هـ/2007م). فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير. بيروت: دار المعرفة .
- ابن عاشور، محمد الطاهر. (1984م). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية للنشر.
- العزاوي، عقيد خالد. (1436هـ/2016م). المناسبات القرآنية، دراسة لغوية بيانية. دمشق: دار العصماء .

- الغرناطي، أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي. (1428هـ). البرهان في تناسب سور القرآن. الرياض: دار ابن الجوزي .
- المسعودي، منال مبطي حامد. (1431هـ/2010م). التناسب في تفسير الإمام الرازي، دراسة في أسلوب الاقتران. القاهرة: مكتبة وهبة .